مجلة الدراسات الإفريقية ـ العدد ٢٥ (٢٠٠٢) : ٢٤٣ - ٢٩٠

الظاهرة الإثنية : المفهوم واستعمالاته

د. محمد جويلى(*)

مدخل :

تراجع العلوم الاجتماعية مفاهيمها ومواضيعها باستمرار وتبحث عن صيغ لبناء الواقع الاجتماعى ذى المداخل المتعددة والقراءات المختلقة والتحوّلات المتسارعة. وقد تكون بعض المفاهيم - فى ظلّ هذه التحولات - غير قادرة على فهم الواقع الاجتماعى وتحليل معطياته وتفاعلاته بل وحتى إعطاء تعريف له . من هنا هذا السعى الذى قاد العلوم الاجتماعية إلى إعادة التفكير فى أوداتها وموضوعاتها ومناهجها .

فى علم الاجتماع يتمّ الحديث اليوم ، "علم الاجتماع تحت الضغط " وهو عنوان مقال اختتمت به المجلة الفرنسية " الكراسات العالمية لعلم الاجتماع " انطولوجيتها بمناسبة مرور خمسين سمة على بدايتها سنة ١٩٤٦ ، ويثير هذا المقال ـ فكرة الضغوطات الجديدة التى يواجهها علم الاجتماع وهى ظواهر العولمة الاقتصادية والتشظى الثقافى الاجتماعى وأخيراً صعود الفردانية المتنامى(١) .

وكان السؤال المركزى هو : كيف سيعيد علم الاجتماع قراءة هذه الضغوطات وتأويلها ؟ وهل له القدرة على معاينة معطيات بدا وكأنه يلهث وراءها بحثا عن شرعية تعطيه مبرر وجوده وتواصله فى سياق بدأت فيه اختصاصات أخرى تشاركه مواضيعه "التقليدية" ؟

(*) باحث فى علم الإجتماع ، بالجامعة التونسية.

(1) Michel WIEVIORKA. La sociologie sous tension. in cahiers Internationaux de sociologie. volume 101, 1996.

هذا اللهاث وراء معطيات معقدة ،ومتسارعة دفع بمجلة كندية هى "علم الاجتماع والمجتمعات" Sociologie Sociétés فى أخذ أعدادها إلى أن تقترح على علم الاجتماع أن يمتلك "نفساثانيا" un second souffle ليواصل تصديه لتعقيدات الواقع الاجتماعى المتسارعة(٢) . ولا يعنى هذا النفس الثانى تجديد علم الاجتماع لمواضيعه فقط بل يعنى أيضاً عملية تفكير نظرى وإبستمولوجى فى مفاهيم البنية والفاعل والثقافة وغيرها.

فى الأننروبولوجيا وقعت مراجعة لعديد المسائل منها ما يهم الموضوع الأنتروبولوجى ذاته الذى لم يعد وفيا لمرحلة التأسيس وانتقل من المجتمعات المسماة "عجائبية " "وتقليدية" إلى المجتمعات الغربية نفسها فلا نستغرب اهتمام الباحث الأنتربرلوجى بمترو باريس(٣) أو بجمهور كرة القدم فى مرسيليا وميلان(٤) أو بطقوس عروض الأزياء فى روما. ولم تعد الآخرية كمفهوم تبنى عليه الأنتربولوجيا تقتصر على الآخرية البعيدة المحببة لأجيال من الباحثين والتى أعطتهم فضاءات خاصة بهم داخل الاختصاص، إذ ظهرت الآخرية القريبة كتحول نوعى فى بناء الموضوع الأنتربولوجى حين يهتم الباحث بمواضيع له معها تداخلات عديدة وقرابة يومية.

إنّ أحد المفاهيم التى تم تجديدها فى الأنتربولوجيا وإخضاعها لعمليات تفكيك وإعادة بناء هو مفهوم "الاثنية" L'ethnicité الذى تقف وراء اختيارنا له مبررات لعل أهمها :

---

(2) Sociologie et sociétés, volume xxx, n°l, printemps, 1998.

(3) Marc AUGE, un ethnologue dans le metro, Paris, Editions Hachette, 1991.

(4) Christian BROMBERGER, Le match de footbal, ethnologic d'une passion partisane a Marseille, Naples et Turin. Paris, Maison des sciences de l'homme, 1995.

- الغموض الكبير الذى يحيط بالمفهوم من حيث تغطيته لوقائع متباينة ومن حيث احتراز الأنتربولوجين من استعماله.

- اقتراب المفهوم وتداخله مع مفاهيم مجاورة له مثل مفهوم القبيلة والأمة والعرق.

- لم يغب مفهوم الجماعة الاثنية عن الاهتمامات السوسيولوجية وماكس فيبير أول من كتب عنه.

- اقتران المفهوم بما يسميه "سميث" بـ "الصّحوة الإثنية" ما يستدعى مفهوما آخر هو مفهوم "الهوية" خصوصاً حين ينظر للعلاقات بين الأفراد والمجموعات استنادا إلى مرجعيات عرقية تتحصّن وراء قلاع ثقافية ثابتة وإقصائية نتيجتها الدرامية ذاك العنف غير المتوقع لهذه العلاقات. فتصبح "الإثنية" محددة فى بناء الفعل الاجتماعى.

- ظهور ما يدعى بـ "الإثنيات الجديدة" Les nouvelles ethnies داخل المجتمعات الغربية نفسها مستندة إلى مرجعيات جديدة لا علاقة لها ضرورة بالقرابة والأصل واللغة والدين ، إنها تشكيلات انبتت على انتماءات مختلفة قد تكون جماعات المهاجرين أو جماعات المافيا أو جماعات الجنسية المثلية أو طوائف عبدة الشمس وغيرها.

يسعى هذا المقال إلى محاولة تتبع مفهوم "الإثنية" من حيث محتوياته واستعمالاته منطلقا مما يتداول عند الإنتربولوجيين على أنه تفكيك للموضوع الإثنى La déconstruction de I'objet ethnque أمّا إعادة صياغة المفهوم فهى تعنى أنّ :

١) الإثنية بناء اجتماعى

٢) الإثنية تفاعل رمزى

٣) الإثنية تنظيم اجتماعى

١ - "الإثنية" : محاولة للتعريف

١-١ المعنى الايتمولوجى

يعود لفظ " الجماعة الإثنية" Une ethnie أو مفهوم " الظاهرة الإثنية" L'ethnicité إلى جذور يونانية نجدها فى كلمة "إنتوس" . "وإتنوس" عند اليونانيين هى تسمية لوصف الشعوب التى لم تكن منظمة فى شكل مدينة دولة والتى لم ترق إلى المستوى الإنسانى فبقيت شبيهة بالمجموعات الحيوانية فى تجمعاتها وحركتها ، وتسند كلمة "إتنوس" بعد ذلك فى التقليد الكنسى لمن نعتوا بالإحيائيين أى الذين لا دين لهم خلافا للمسيحيين(٥).

بدأ أصل الكلمة مشحونا بصفات سلبية وإقتصادية ليعاد استعماله مع بداية القرن التاسع عشر بمحتوى عرقى هذه المرة(٦) ، و يعنى هذا الاستعمال بالأساس اختلاط الأعراق وتداخلها مع ما يخلفه من انحطاط للنوع البشرى.

يختلف استعمال "الجماعة الإثنية" عند الفرنسيين مقارنة بالتقليد الجرمانى والأنقلوساكسونى. فعند الفرنسيين تمثل "الجماعة الإثنية" جماعة لغوية بالأساس تنفرد بخصائص لغوية تفرقها عن الجوار. أما فى التقليد الجرمانى فهناك تركيز فى تعريف المصطلح على فكرة المشاعر أو الإعتقاد فى الانتماء لمجموعة وهو ما سنجده لاحقا عند ماكس فيبر ، وخلافا لهذين الاستعماليين يميل الاستعمال الأنقلوساكسونى إلى اعتبار"الجماعة الإثنية" أقلية ثقافية(٧).

---

(5) Jean Loup-AMSELLE, Article << ethnic >>, in Encyclopedie Universialis, corpus 7.

(6) Ibid.

(7) Taylor A.C. Article << ethnic >>, in Dictionnaire de l'Anthropologie et l'ethnologie, Publié sous la direction de P. BONTE et M. IZARD. Editions. PUF 1991.

لقد بقى مضمون "الجماعة الإثنية" وفيا لأبعاد متصلة بالمجتمعات "الوحشية" مجتمعات اللاتاريخ واللادوية فى تمايز عن شكل آخر من المجتمعات المسماة متحضرة. وساد هذا التمشى فى الأنتربولوجيا الكلاسيكية طويلا ووجد تطبيقاته فى مجتمعات غير مألوفة تبحث عن مكتشفها.

وعلى خلفية هذه النظرة مثلت الإتنولوجيا ذاك العلم الذى يلتفت للمجتمعات "العجائبية" معرفا بخصائصها ومصنفا لمكوناتها ومحللا لظواهرها الاجتماعية والثقافية(٨).

٢- المعنى السوسيولوجى والأنتربولوجى

٢-١ ماكس فيبر والانتماء الإثنى

يخصص «ماكس فيبر» في مؤلفة "Economie et société" جزاء للعلاقات الإثنية ويكشفه نصه حرصا على عدم استعمال لفظ "Ethnie" إلا فى دلاتها الوصفية والنعتية . وقد يكون دافعه الرغبة فى الابتعاد عن الشحنة السلبية والإقصائية للكلمة . وقد تكون أيضا غياب اقتناعه بوجودها فعليا إلا كمشاعر أو كتصورات واعتقادات . ولا تعترضنا فى نصه إلا الاستعمالات التالية : "المجموعة الإثنية: " والشرف الإثنى " والإتفاقيات أو التعارضات الإثنية".

يعطى "ماكس فيبر" التعريف التالى للمجموعات الإثنية نسمى مجموعات إثنية عندما لا تمثل مجموعات قرابة. والمجموعات الإثنية هى هذه المجموعات الإنسانية التى تغذى اعتقادا ذاتيا فى جماعة أصل مرتكزة على تشابهات فى التقاليد الخارجية وفى الآداب أو الاثنين مفا أو ارتكاز على ذكريات متصلة

(8) Guy NICOLAS. Fait "Ethnique" et usages du concept d'Ethnie". In Cahiers Internationaux de sociologie. Volume LIV 1973 p. 96

بتجربة استعمارية أو بهجرة بطريقة يصبح فيها هذا الاعتقاد ضروريا وهاما لنشر تجمع بلدى Communalisation وذلك بقطع النظر عن الوجود الموضوعى لشراكة الدم ... والعيش المشترك "الإثنى" يختلف عن جماعة القرابة. والعيش المشترك "الإثنى" ليس جماعة ولكنه عنصر لتشكيل تجمع بلدى(٩).

لا يمكن فهم الاعتقاد الذاتي الذي يعده «فيبر» محوريا في تعريف الجماعة الإثنية دون الالتفات إلى ما يسميه "الشرف الإثنى" وهو شرف جماهيرى مميز لأنه مفتوح لكل الذين ينتمون إلى جماعة أصل يعتقدون فيها ذاتيا(١٠) ولكن هذا الشرف الإثنى لا يبنى إلا من خلال الإيمان بامتياز قيم هذا الشرف وعاداته وبدونية القيم والعادات الأجنبية .

يقر فيبر بصعوبة التحكم فى مفهوم الجماعة الإثنية لأن مضمون نشاط جماعة على قاعدة إثنية ممكن ولكنه غير محدد(١١) . ورغم ذلك أمكن تحديد المقاربة "الفيبرية" لمفهوم "الجماعة الإثنية" فى ثلاثة عناصر هى :

١ - الاعتقاد الذاتى فى أصل مشترك الذى انطلق منه "فيبر" فى تعريف الجماعة الإثنية لا يعنى إمكانية البحث عن جذور الظاهرة الإثنية فى ملامح مشتركة بين الأفراد مهما كان نوعها(١٢) .

---

(9) Max WEBER, Economie et societe, Editions Plon, 1971 et Editions Pocket, 1995, Tome 2,p 130.

(10) Ibid, p. 133.

(11) Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FENART, Theories de L'ethnicite, Editions PUF, Paris 1995, p. 41.

(12) Ibid, p41.

٢ - يتم البحث عن جذور الظاهرة الإثنية فى الأنشطة المتصلة بانتاج الاختلافات ورعايتها وتعميقها. وهذه الاختلافات ذات الحضور الموضوعى لا يمكن تقييمها باستقلالية عن الدلالة التى يسندها الأفراد لها فى مسار علاقاتهم الاجتماعية . وحينها ينظر للظاهرة الإثنية كبناء اجتماعى فى وضعية إشكالية دائمة (١٣).

٣ - تبنى الهوية الإثنية عبر الإختلاف ، وينظر لهذا الاختلاف كمسار تواصلى بين من يعتقد فى انتماء يميزه عن الآخرين وبين هؤلاء الآخرين الذين يعدون كأجانب .

ولأن هذا الاختلاف هو مسار تواصلى فأن الإنكفاء حول الذات لا يخلق هذا الشعور أو الاعتقاد فى الانتماء الإثنى. ويبرز هنا مفهوم الحدود الإثنية التى يضعها الأفراد كل مرة ليعرفوا أنفسهم ويعرفوا من هو فى عددا الآخرين(١٤).

تصور "فيبر" للظاهرة الإثنية مشروط بحضور التحليل التاريخى والسوسيولوجى للوعى وللاعتقاد الذى تحمله المجموعة البشرية حول نفسها وحول محيطها فى زمن معين ومكان محدد . وهذا التصور مرتبط بالظاهرة الأثنية كبناء اجتماعى مستمر يستدعى تأويل عناصر الانتماء ومضامين الاعتقاد فيها ومن ثمة إعادة تأويلها كلما اقتضت الضرورة .

٢ -٢ الظاهرة الإثنية موضوع انتروبولوجى

تبدو القرابة اللغوية بين "إثنية" واتنولوجيا مؤثرة فى تعريف الموضوع الأساسى لما يسمى فى التقليد بـ الاتنولوجيا Ethnologie ويتجه موريس

---

(13) Ibid, p 41 .

(14) Ibid, p 42 .

لينهارت إلى تعريف الإتنولوجيا بأنها علم الإثنيات [١٥] . ،وأوجدت "الإتنولوجيا لنفسها مجالات بحث وبنت موضوعها فى اتصال مع مجتمعات إثنية خارج المجال الجغرافى الأوروبى وبدت المجتمعات الأفريقية والأسيوية وغيرها المعرف البارز لهذا الاختصاص العلمى . أما الاتنوغرافيا وهى المرحلة الأولى من الاتنولوجيا فقد اعتنت بتجميع المعطيات وتصنيفها ميدانيا ارتكازا على مفهوم الجماعة الإثنية الذى تم تبنيه ، ولكن الفاعلين الذين صنعوا هذه المعرفة العلمية كانوا من مشارب عدة منهم الإدارى المتصل بالدوائر الاستعمارية ومنهم العسكرى والحالة ومنهم العلماء ، وهؤلاء جميعاً وبصيغ مختلفة لم يراكموا معرفة حول المجتمعات والثقافات التى تولوا رصدها فحسب بل استعملوا مفاهيم لا تتلاءم مع الواقع الذى تمت دراسته ميدانيا [١٦].

وبرز مفهوم الجماعة الإثنية كأحد هذه المفاهيم ليغطى وقائع يتم التعبير عنها بتسميات أخرى كالعراق والقبيلة والعشيرة كما يستدعى مفهوم الجماعة الإثنية ليكشف عن خلط فى تقسيم الوحدات الاجتماعية والثقافية والسياسية لهذه المجتمعات مع ما ينتجه هذا الخلط من قراءة متكلسة للواقع فى حين أنه واقع متحرك تتغير داخله لأشياء وفق رهانات الفاعلين الاجتماعيين واستراتجياتهم .

---

15 Jean POIRIER, Ethnologie regionale, In Encyclopédia de la pleiade, Editions Gallimard, 1972, p. 3

(16) Jean Loup AMSELLE, L'ethnicité comae volonté et comme representation, A propos des Peul du Wasolon, In Annales, Economie, Societescivilisation, 42eme Année n ٢ !Mars-Avril 1987, p. 466

سعت الإتنولوجيا "الاستعمارية" الفرنسية منها والبريطانية إلى بناء معرفة حول المجتمعات الأفريقية قائمة على تجارب اتنوغرافية أعطت من الخرائط الإدارية والأطالس والتحديدات الإثنية الشيء الذى سهل على الاستعمار احكام سيطرته على شعوب هذه المجتمعات (١٧) . وتنطلق هذه المعرفة المتنوعة من فرضيات ومفاهيم تنسجم مع التطلعات الاستعمارية ومع تصور هذه الاتنولوجيا لتطور المجتمعات ، وهو ما يفسر إعادة الاعتبار لمفهوم " الجماعة الإثنية" خلال المرحلة الاستعمارية لقراءة المجتمعات غير الأوروبية . وتزامن ذلك مع مرحلة مهمة فى بناء الأنتروبولوجيا لمقاربتها ومناهجها ومواضيعها سميت بالتيار التطورى Le courant évolutionniste فى القرن التاسع عشر ، وهو تيار فى الأنتروبولوجيا يؤكد على أن المجتمعات مرت بمراحل بدأت بالوحشية ثم البربرية وأخيراً وصلت إلى الحضارة ، وعبر كل مرحلة تنشأ المعتقدات والقيم والتقنيات الخاصة بها وتتدعم سيطرة الإنسان عليها إلى أن وصلنا المجتمعات إلى أن وصلنا إلى المجتمعات الصناعية وكان " Lewis H. Morgan أهم رموز هذا التيار الأنتروبولوجى (١٨) . لقد اقترن ظهور التيار التطورى باكتشاف مناطق عديدة مثل إفريقيا ومريكا الشمالية والجنوبية وجزر المحيط الهادى واستراليا وارتبط أيضا ببروز منهجية انتروبولوجية تعتمد الملاحظة والمقارنة النسقية لأنماط الحياة فى هذه المجتمعات المدروسة . فوقع نقل مفاهيم المرحلة ليجد

---

(17) Jean -Loup AMSELLE, Logiques metisses, Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Editions PAYOT, 1990, p.29.

(18) Jean-Fran.cois DORTIER, Les sciences humains, Panorama des connaissances, Editions sciences humains. Janvier 1998, p. 26-27.

الأنتروبولوجى المتأثر بالمقارنة التطورية نفسه أمام مجتمعات أمام مجتمعات وثقافات تأتى فى أغلبها ضمن الحالة الأولى من التطور البشرى ، ولكن الخطأ القاتل الذى وقعت فيه الانتروبولوجيا الاستعمارية أنها بنت معرفتها حول المجتمعات الافريقية باستعمالها ألفاظاً وتسميات وكلمات لمؤسسات هندو - أوروبية واستنجادها بالفكر السياسى اليونانى القديم (١٩) . واستنجد الأنتربولوجيون بالمقولة التى تلخص تصورهم للمجتمعات التى يسمونها بدائية وهى أن البدائيين هم أجدادنا المعاصرون . وعلى هذه الخلفية يحضر مفهوم « الجماعة الإثنية » Ethnie بمضامينه القديمة قصد قراءة واقع مختلف عن واقع مختلف عن واقع المجتمعات الأوروبية ، ويظل الأهم من ذلك أن تحديد نطاق « الجماعة الإثنية » أى ضبط حدودها الجغرافية واللغوية والدينية والسياسية وكل ما يشكل تفاصيلها الأخرى قد أضحى مهمة هذه الأنتروبولوجي التى تولت إخراج شبكة تضم عديد الإثنيات فى إفريقيا وغيرها : فأصبحت " الجماعة الأثنية» ابتكار أو إنجازا استعماريا بما يتطلبه من مسار كامل لنشأة جماعة أثنية لم تكن موجودة سابقاً (٢٠) وإنما أوجدتها مصالح استعمارية شتى هاجسها السيطرة على مجموعات وإدماجها فى وحدة اجتماعية تسهل قيادتها فيتغير السؤال أذن من سؤال عن وجود" جماعة أثنية" من عدمه إلى سؤال عن

---

(19) Jean-Loup AMSELLE. Logiques metisses, op. cit, p 30.

(20) Jean-Pierre DOZON. Les Bete: une creation coloniale, In au cceur de l'ethnie. Sous la direction de Jean Loup AMSELLE et elikia M'BOKOLO, Editions la découverte, Paris 1985, pp 49-85.

ينفى «جون بيار دوزون» J.P. DOZON وجود وحدة إثنية اسمها «البتي» "Les bété" قبل المرحلة الاستعمارية ويؤكد أن «البيتي» كجماعة إثنية إنتاج وإبتكار استعماري .

الشروط الكامنة وراء ظهورها ونشأتها [٢١] . ويقصد بالشروط كل ما يتعلق بالسياق الذى ظهرت فيه هذه "الجماعة الأثنية" وبالتسميات التى استعملتها لتؤسس كيانها الخاص وبآليات التى تم تشغيلها لتحديد المنتمى وغير المنتمى أو كيف تصبح من أعضاء هذه " الجماعة الإثنية " وكيف تخرج عنها ، وإن وراء هذه الشروط رهانات واستراتيجيات تجعل من " الجماعة الأثنية" مجالاً خصبا للصراع بأشكاله المادية والرمزية بين فاعلين اجتماعيين فتكف عن كونها وحدة اجتماعية مستقرة وثابتة لتبرز لنا كوحدة فى حالة ديناميكية وتفاعلية لها تصورات لهويتها وتسعى دوما للحفاظ على حدودها والإبقاء عليها فى علاقاتها مع الوحدات الاجتماعية المجاورة .

هذه النقلة فى زاوية النظر للجماعة الإثنية كمفهوم وكممارسة أعطت للدراسات السوسيولوجية والأنتروبولوجية انطلاقة غير معهودة ، فتقدمت إى الواجهة تعريفات جديدة لمفهوم " الجماعة الإثنية " تنطلق من فكرة محورية وهى أن التعريف المتداول لهذا المفهوم كما صاغته الأنتروبولوجية الاستعمارية لا يتلاءم مع واقع تمت دراسته من هؤلاء الذين أحدثوا هذه النقلة النوعية للجماعة الإثنية [٢٢] . ويبرز من بينهم "نادال" NADEL ومرسييه MERCIER وبارث F.BARTH المتصلة أبحاثهم بالفضاءات الإفريقية جنوب الصحراء ، فلم تعد " الجماعة الأثنية " ذلك المعطي المحّدد مسبقا وكأنّه كيان جاهز لا يتحرك. ولم تصمد التقسمات والتحديدات الاثنية الاستعمارية مرجعاً لتعريف الجماعة لتعريف الجماعة الاثنية، فنحن إذا أمام عملية إعادة تعريف للموضوع الإثنى

---

(21) Jean BAZIN, A chacun son Bambara, In au coeur de l'éthnie. Op. cit, p 112.

(22) Jean-Loup AMSELLE, L'éthnicité comme volonte. op. cit, p 466.

تأخذ بالاعتبار البُعد الديناميكى لتشكيل الجماعة الإثنية والبعد التفاعلى الذى يحرّك مساراتها والعد الاستراتيجى الذى يعتمده الفاعلون الاجتماعيون عند تعريفهم لذواتهم ولعلاقاتهم بالآخر.

٢-٢-١ فريديرك بارث F.BARTH والحدود الإثنية

يستعمل " فريديرك بارث " مفهوم " المجموعج الإثنية Le groupe ethnique ويرى أنه يقدم خدمة للأدبيات الأنتروبولوجية لأنه يضع لها التعريف التالى:

المجموعة الإثنية هى مجموعة بشرية (٢٣):

١ - تتواصل بيولوجيا على نطاق واسع.

٢ - تحمل قيماً ثقافية أساسية أنجزتها هذه المجموعة ضمن أشكال ثقافية لها وحدة ظاهرة.

٣ - تمثل مجالا للتواصل والتفاعل.

٤ - تتشكل من أعضاء لهم هويّة ويساهم الآخر فى إسنادهم هويّة ويمثلون وحدة يمكن تمييزها عن الوحدات الأخرى من نفس النظام.

يعتلق "بارث" على هذا التعريق ويعتبره نموذجاً مثاليا ويُعدّه تعريفا غير بعيد عن الاقتراحات التقليدية التى تجمع بين العرق والثقافة واللغة والتى يصبح بموجبها المجتمع وحدة ترفض الآخرين أو تمارس ضدّهم إجراءات تمييزية(٢٤).

ويضيف "بارث" أن الخطر جرّاء هذا التعريف هو الاكتفاء فقط بالخصائص

---

(23) Fredrick BARTH, Les groupes ethniques et leurs frontieres, In theories de l'ethnicite, op. cit, p 206.

(24) Ibid, p 206.

المكونة للمجموعة الإثنيةدون الإعتناء بالحدود الإثنية كإشكال يفتح آفاقا لفهم الظاهرة، فالحدود الإثنية بالنسبة إلى "بارث" مؤسّسة للمجموعة الإثنية وعليها يتركز بناؤها. وهى ليست نتاجا طبيعيا للإنزواء الذى تفرضه الخصائص المعتمدة فى تعريف المجموعة الإثنية الأخرى(٢٥). ويدافع "بارث" على فكرة الاشتراك فى ثقافة واحدة - وهى أهمّ خصائص المجموعة الإثنية - ليست مهمّة فى ذاتها. فهذا المعطى - أى الاشتراك فى ثقافة واحدة - هو نتيجة أو خلاصة وليس خاصيّة أولى معرّفة ومحدّدة لتنظيم المجموعة الإثنية (٢٦) . هى إفرازّ لتفعيل الحدود الإثنية.

ويَستدعى "بارث" تعريفا للمجموعة الإثنية كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعى. فيُسند فى هذه الحالة أهمية بالغة إلى الركن الرابع فى التعريف المقترح وهى التصنيفات التى يعطيها أعضاء المجموعة الإثنية لأنفسهم واستقبالهم للتصنيفات التى يلحقها الآخرون بهم ويستعمل الفاعلون الاجتماعيون لذلك هويات إثنية لغايات تفاعلية، إنهم يشكلون عبر تبادل هذه التصنيفات مجموعات إثنية بالمعنى التنظيمى(٢٧).

لا تعمى الخصائص المميّزة للمجموعة الإثنية عند "بارث" تلك السّمات الموضوعية التى فى تجميعها تشكل الاختلافات البارزة بين مجموعة إثنية وأخرى وما يهمّ "بارث" هو ما يعتبره الفاعلون اختلافات ذات دلالة (٢٨)، ولكن هذه

---

(25) Ibid, p 207.

(26) Ibid, p 207.

(27) Ibid, p 211.

(28) Ibid, p 24.

الدلالة غير ثابتة ولا أهمية لها إلا ضمن سياق ومصالح ورهانات واستراتيجيات يحملها الفاعلون معهم فى علاقاتهم التفاعلية المختلفة. إن بعض الخصائص الثقافية المعتبرة هامة فى وجود المجموعة الإثنية تفرغ من مضمونها ودلالتها عندما يكتشف الفاعلون عدم جاهزيتها وصلوحيتهاوجدواها فى ظروف أو يساق محدّد. تُبنى الاختلافات الإثنية عند "بارث" لذلك هو منشغل أساساً بالحدود الإثنية كمنتج للهويات وبالتالى لهذه الاختلافات. فليس الاختلاف عن الأخر معطى متكلّس إنه على العكس ممارسة اجتماعية ومسار ينجزه أعضاء المجموعة الإثنية لحماية حدودهم الإثنية والأبقاء عليها. إن أطروحه "بارث" عن الآخر فى النهاية هى أن الحدودالإثنية كشكل تفاعلى هى التى تعطى تعريفا للمجموعة الإثنية وليست عناصرها وأدواتها الثقافية منظورا إليها ما قبليًا. والحدود الإثنية لدى "بارث" لاتعنى بالضرورة حدودا جغرافية،رنها أيضا حدود اجتماعية ورمزية دائمة التشكل والحركة يستنجد بها الفاعلون لمعاينة هويّاتهم ومتابعتها فضلا عن بنائها وإعادة بنائها والمفاوضه من أجلها (٢٩).

يدخل بنا "بارث" ومن قبله "ماكس فيبر" مسارا يمنح البعد الذاتى فى بناء الظاهرة أو المفهوم حضوراً لائقا لأنه ثمة رغبة فى عدم إعطاء قيمة لما يسمى بالمعطيات الموضوعية التى تميز الظاهرة الإثنية، وهذه مقاربة اشتغلت لوقت طويل خلال المرحلة الاستعمارية مؤكدة على أن المجموعة الإثنية أو غيرها من الوحدات الاجتماعية هى نماذج ممكن التعرّف عليها بسهولة عبر تحديد سلسلة من ألخصائى

---

(29) Lucette VALENSI, La tour de Babel, groupes et relations ethniques au Moyen-orient et en Afrique du Nord, In Annales E.S.C, juillet -aout, 1986 n٤ . ! p 829.

المتميزة لها والمتناقلة عبر الأجيال وهى ذات قدرة على تثبيت شكلها. إن المقاربة الذاتية على النقيض من ذلك تتجة أكثر نحو المسارات وشكلها ونحو الشبكات أكثر من المجموعات ونحو الاستراتيجيات بديلا عن الموروثان [٣٠].

٣- الجماعة الإثنية ومفاهيم مجاورة : العرق والأمة

والقبيلة: علاقات التداخل

تتداخل مفاهيم الجماعة الإثنية والقبيلة والأمة تداخلا يصعب إجاد حدود فاصلة بينها فلا نعرف أين تنتهى حدود الجماعة الإثنية وأين تبدأ حدود القبيلة. ويعاد نفس الشئ بين الجماعة الإثنية والعرق وغالبا ما يقع استعمالهما مترادفين فى حين أنهما يعبّران عن واقع متباين الخصائص.

لا تخلو الكتابات عن الظاهرةالإثنية من تعريج على مفاهيم تبدو متقاربة الإستعمالL'ppartenance raciale ليميّزه عن الانتماء الإثنى، فالأول يحضر عند القرابة البيولوجية الفعلية فى حين يتجسد الثانى كجملة من المشاعر والمعتقدات والتصورات ويشترك مفهوم الأمة La nation مع مفهوم الجماعة الإثنية فى حملة نفس الخصائص[٣١]. ولكن السائد خلال القرن التاسع عشر أن العرق La race عُدّ أحد العوامل المفسّرة لما هو اجتماعى وخضعت تصنيفات البشر لمقارنات فيزيائية مثل حجم الدماغ ولون البشرة. وبالرّغم من السوسيولوجيا الأنقلوسكسونية لا تهتم الآن بالعرق فى ذاته وتتجه أكثر نحو العلاقات العرقية واستتباعاتها الثقافية والاجتماعية فان التداخل بين المفهومين

---

(30) Lucette VALENSI, Presentation du numéro: les sociétiés plurielles, In Annales E.S.C, op. cit, p 748.

(31) Max WEBER, Economie et société, Tome 2, op. cit, pp 124-125.

لايزال قائماً لأن مجرّد إدخال البعد العرقى فى العلاقات البشرية يثير تأويلات فى الاستعمال ولأن مفهوم العرق بخصوصياته الوراثية هو كذلك بناء اجتماعى[٣٢] . ولا يمكننا الحديث عن حياة فمجرّد النظر فى الاختلافات الفيزيائية الوراثية بين البشر وتصنيفهم فى ضوئها هو إمكانية مفتوحة لإلحاق هذه الاختلافات بمستوى آخر هو العلاقات الاجتماعية. وهنا تبرز الظاهرة العنصرية كخلاصة للجمع بين مبدأين أساسيين هما اللاتكافؤ والاختلاف، الأوّل له حجج بيولوجية والثانى ذو حجج ثقافية [٣٣] . ويشير "آلان توران" معرّفا الظاهرة العنصرية إلى تلك التصوّرات التى تحُمل عن شعب بعتباره أقل قيمة لاعتبارات طبيعية مستقلة عن فعله وإرادته ويعيش العُنصرين Le raciste ذُونية هذا الشعب كتهديد له فيتماهى مع قيم كونية ومع ثقافة يعتبرها إيجابية فيسعى بالتالى إلى حماية مجتمعه من هذا التهديد عبر إجراءات إقصائيّة للطرف الآخر" [٣٤] .

إنّ اللاّتكافؤ البيولوجى بين الشعوب ليس حاسما بمفرده عند بناء الظاهرة العنصرية لأن تكامله مع الاختلاف الثقافى هو الذى يعطى معنى للظاهرة العنصرية التى تتأكد إلا عند الشهور بالتهديد والخوف فتترجم إلى أفعال مواقف.

إن العرق موجود من قبل لأنه معطى بيولوجي ولكن العنصرية ظاهرة جديد تأكدت عند الإلتقاء بين الشعوب فى إطار المرحلة الإستعمارية خصوصا ويصفها "الان توران" بكونها المرض الاجتماعى للحداثة .

---

(32) Philippe POUTIGNAT, Les theories de l'éthnicité, op. cit, pp 43-44

(33) Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui. In Racisme et modernité, so us la direction de MichelWIEVIORKA. Editions la découverte. 1993. p 24.

(34) Ibid. p 23.

Une maladie sociale de la modernite [٣٥] هذه الحداثة التى يصعب عليها قبول الإختلاف فتوّله إلى لاتكافؤ [٣٦] .

لقد تأثرت تعريفات المجموعة الإثنية بمفهوم العرق إلى حد لا يمكن تجاهله وثمة من اعتبره أحد عناصر الظاهرة الإثنية. إذ يقدم "بولمر " Bulmer التعريف التالى : المجموعة الإثنية هى مجموعة أفراد أعضاء فى تجمع أوسع يشتركون فى أصول فعلية أو افتراضية وفى ذاكرة تاريخية وهوية ثقافية ترتكز على عنصر رمزى أو أكثر وقرابة ودين ولغة ومجال مشترك وقومية أو ملامح فيزيائية "[٣٧] يبدو لنا هذا التعريف مدمجا لبعدين هامين هما الثقافة والبيولوجيا فى تحديد المجموعة الإثنية أى الانطلاق نحو اعتبار العرق عنصرا مكونا للمجموعة الإثنية وفى هذه الحالة يمنح هذا التعريف اتجاها نحو تداخل المفهومين وتصبح العنصرية مبنية على تغذية الجانب البيولوجى بعناصر ثقافية وتبرز الفوارق بين الأعراق استنادا على الثقافة .

ويتجلى مسار التداخل بين مفهومى العرق والإنتماء الإثنى فى ما يحمل عن السود من تصورات فى ذات الوقت بيولوجية - تعهمد على اعتبار العرق الأبيض أفضل جينيا من العرق الأسود - وثقافية لأنه يقع تحويل هذه الأفضلية البيولوجية إلى أفضلية ثقافية تنعت الأسود بأنه كسول وغير ذكى ومنحرف وعلي استعداددائم لممارسة العنف [٣٨] . تكشف هذه الستيريوتيبات العرقية

---

(36) Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui, op. cit p 27.

(37) Blumer, cite par T.K Oommen, In les relations entre race, ethnicite et classe, Revue Internationale des sciences sociales, n ١٣٩ . !Fevrier 1994, p l l2.

(38) T. KOOMMEN, Les relations entre races, ethnicite et classe, In Revue Internationale des 39 sciences socilaes, n ١٣٩ . !Fevrier l994, p105.

المنشرة داخل المجتمعات المتعددة الأعراق عن تداخل مفهومى العرق والجماعة الإثنية بالرغم من أن العرق الواحد يمكن له أن يحتضن مجموعات إثنية متعددة مثلما يحمل أعضاء من عرق ما اختلافا فى الديانة واللغة ونمط العيش (٣٩). إن عدم التفريق بين المفهومين لا يؤدى فقط إلى خلط فى فهم الوقائع المتباينة بل إنه يحاصر مفهوم المجموعة الإثنية أو الظاهرة الإثنية ويجعله تورية لمفهوم العرق غير المرغوب فى استعماله الآن على الأقل فى العلوم الاجتماعية الفرنسية (٤٠). ولهذا يشحن الخطاب العنصرى الجديد فى أوروبا مفهوم الإثنية بدلالات عرقية عنصرية تقوم على الخوف من الإثنيات الأخرى.

٣-٢ المجموعة الإثنية والأمة

لا ينتهى الغموض فى تعريف المجموعة الأثنية بمجرد محاولة تفريقه عن العرق ويبقى التساؤل حول التجربة الإنسانية التى لا تضمن لنا دوما عدم التداخل بين ما هو بيولوجى وما هو ثقافى فى تعريف الذات والآخر . وقد تزداد الوضعية غموضا عند اقتران مفهوم المجموعة الإثنية بمفهوم الأمة La nation فكلاهما يحيل على ما هو ثقافى.

يعرف OOMMEN الأمة بأنها أرض شعب يمتلك ثقافة والمجال أى عندما تحمل مجموعة من الأفراد أوشعب ثقافة فى أرض ليست لهم. ويحصل هذا فى حالات الخجرة والاستعمار مثلا (٤١) . ويمكن للمجموعة الرثنية أن تتحول إلى

---

(39) Ibid, p 27.

(40) Jon ROWLEY, Ethnicite, Nation et contrat social, In theories du Nationalisme, Gil DELANNAI et P.A. TAGUIEFF (Dir), Editions KIME, 1991, p 180.

(41) OOMMEN T.K. les relations entre race, ethnicité et classe, op. cit. p 107.

أمة كلما استطاعت أن تعلن سيطرتها وتصرفها وامتلاكها لمجال ودون أن يؤدى ذلك بالضرورة إلى إنشاء دولة (٤٢).

يميز OOMMEN بين نوعين من الإثنية . ثمة الإثنية الرمزية والإثنية الأداتيه . تسعى الأولى إلى الدفاع عن هويتها وثقافتها وتحاول أن تضمن الحد الأدنى من رموزها رغم أنها لا تمتلك امتيازات اقتصادية وسياسية وهذه حال أغلب المجموعات الإثنية . أما الإثنية الأداتية فهى تلك الرغبة فى مقاومة اللامساواة المادية والبحث عن ظروف عيش أفضل والمناداة بالحقوق الإقتصادية والسياسية والثقافية لأفرادها، ولكن عندما تكون هذه المجموعة الإثنية أغلبية فى مجال معين فإن بإمكانها أن تؤلف بين الإثنية الرمزية والإثنية الأداتية مثلما هو وضع المجموعة الفرنكفونية فى الكيباك (كندا) فتتحول بالتالى إلى أمة بالرغم من أنها لم تتجسد كدولة (٤٣) .

يتحرك مفهوم الأمة داخل صياغتين لكل واحدة منهما علاقة ما بمفهوم المجموعة الإثنية . تتمثل الصياغة الأولى فى الخليفة اليعقوبية Jacobine والسياسية التى بفضل العقد الاجتماعى تأسست وحدة سياسية قادت الفرد إلى أن يضع هويته كمواطن فوق كل الهويات الأخرى وأن يلتزم بشروط هذه الهوية (٤٤) . وخلافا لذلك كشفت الصياغة الثانية عن خليفة ثقافية بموجبها لم تكن الأمة نتاجا لشكل من العقد الاجتماعى أو انتماء لوحدة سياسية ولكنها التعبير عن انتماء لمجموعة ثقافية ترتكز على نفس اللغة والديانة والهوية

---

(42) Ibid, p 107.

(43) Ibid, p 108.

(44) Bertrand BADIE. Culture. identité, relations internationales. In Etudes Maghrebines. n°7. 1998. p11.

والانتماء الإثنى والعرقى [٤٥] . وإذا ما تنبت دولة ما هذا المفهوم الثقافى وتأسست عليه وشكلت وفقه انتماءها القومى فإنها كدولة أمة ستمارس التفرقة الإثنية وفى حالات قصوى التطهير الإثنى وسيؤدى الاختلاف الثقافى إلى اعتبار صنف من المواطنين صنفا من درجة ثانية أوأقلية مرفوضة [٤٦] . لا تعنى الصياغة الأولى للدولة الأمة أنها بمنآى عن رفض الآخر "الإثنى" برغم حالة التعاقد بين مواطنيها على أساس التساوى واحترام الاختلاف . وتكشف الحروب والصراعات التى خاضتها هذه الدول عن حضور البعد الإثنى بدرجات مختلفة اضافة إلى طريقتها فى التعامل مع الوافدين إليها من المهاجرين أساسا. ومع هذا تميزت الصياغة الأولى بأن آخريتها لم تكن مصدرا لإقصاء مطلق لمن لا يشاركها الثقافة والدين واللغة والعرق.

تعرف المجموعة الإثنية بضعف حضور السياسى بل هى فى الأغلب على هامشه وبالمقابل يقع التأكيد على أنها تشكيلة اجتماعية ثقافية [٤٧] ، ولكنها حين تحاول افتكاك المجال السياسى فان الأمة تشعر بالتهديد الذى قد يطال وجودها . يحدث هذا فى السياق الفرنسى فالأمة الفرنسية غير قلقة من ظهور مؤسسات تهتم بشعوب "الباسك" والبروتون" كالمؤسسات التربوية التى تستعمل لغة غير الفرنسية. إلا أنها بالتأكيد ترفض وتقاوم الحركة السياسية "الباسكية" لأنها تجاوزت البعد الإثنى لتدخل المجال الوطنى وتراجع لديها الثقافى لفائدة السياسى [٤٨] . إن الانتماء لمجموعة إثنية هو التزام بحدود ثقافية ورمزية .

---

(45) Ibid, p 12.

(46) Ibid, p 12.

(47) Guy Nicolas, Fait ethnique, op.cit, pl13.

(48) Ibid, p 116.

ولا يعنى هذا فك الارتباط عن الأمة وفى نموذج الأقليات الإثنية الأمريكية ما يؤدى أن هذه المجموعات مرتبطة بأممها الأصلية لكنه ارتباط رمزى شعورى لا ينفى بالضرورة الإرتباط السياسى بالأمة الأمريكية . فالإيطاليون والإرلنديون والبولونيون وهم يشكلون أقليات إثنية فى المجتمع الأمريكى يدافعون عن إرثهم الأوروبى لغة وتقاليد وشعورا بالانتماء لأممها وقد يقاومون بشكل صريح إدراجهم الكلى فى ما يسمى بـ melting pot الأمريكى لكنهم فى النهاية غيرقادرين على التنصل السياسى من الأمة الأمريكية (٤٩) .

٣-٣ المجموعة الإثنية والقبيلة

إذا كانت الفوارق بين المجموعة الإثنية والعرق هى فوارق بين الثقافى والبيولوجى - ولا يقصى هذا تداخلها - وإذا كان التمييز بين المجموعة الإثنية والأمة تمييزا بين الثقافى والسياسى فماذا عساها تكون خطوط الفصل بين المجموعة الإثنية والقبيلة ؟؟

فى التعريفات السوسيولوجية والأنتروبولوجية المتداولة ثمة قرابة كبيرة بين المفهومين إلى حد أن الإستعمال الفرنسى لا يفرق بينها (٥٠) ، بل أن الأدبيات الانتروبولوجية والتاريخية ، ولزمن طويل ، تناولت الظاهرة الإثنية فى الفضاء المغاربى باستعمال تسميات ذات مرجعية قبلية(٥١) . ويأتى التمايز الأول من الأنتروبولوجيين الأنقلوساكسونيين الذين تعاملوا مع القبيلة كشكل من التنظيم

---

(49) Ibid, p 102-103.

(50) Jean Loup AMSELLE, Au cceur de ltethnie, op. cit, p 15.

(51) Mondher KILANI. Lignages et identité ethnique dabs l'oasis de Gafsa, In IBLA, n° 160. tome 50, 1987, p301.

الاجتماعى له خصوصياته ويعنون بذلك المجتمعات الانقسامية (٥٢) حتى أن "غيلنر" رفض تطبيق مفهوم القبيلة أو المجموعة الإثنية على المناطق الريفية لشمال افريقيا معتبرا أنها لا تحتضن إلا تنظيمات ذات نمط انقسامى (٥٣) .

ويرى غيلنر أن وجود قبائل عربية وأخرى بربرية يمنع من اعتبار مجموع عرب شمال افريقيا قبيلة أو مجموع بربر المنطقة يمثلون قبيلة والسبب هو وجود تواصل ثقافى واجتماعى وتداخل قرابى بينهما فرضته الأحداث وحتمه التعايش على مدى التاريخ الوسيط والحديث (٥٤) . بين القبيلة والمجموعة الإثنية هناك اختلاف فى البناء فالمجموعة فى البناء فالمجموعة الإثنية أكثر اتساعا من المجموعة القبلية (٥٥) . ويحدث أن تضم المجموعة الإثنية قبائل متعددة . ويقدم التشكيل القبلى نفسة على قاعدة سياسية بالأساس فى حين يحافظ تعريف المجموعة الإثنية على الملامح الثقافية (٥٦).

يتم التأكيد عند دراسة القبيلة كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعى على عناصر أساسيه هى الإقليم والإنحدار من جد مشترك واقعى أو خيالى واللغة والدين والمعتقدات يضاف إليها الشكل البنائى أى تلك التقسيمات الفرعية المشكلة من عائلات وأفخاذ وعروش . وينظر إلى القبيلة من خلال الاعتقاد الداخلى الذى لدى أعضائها كونهم يؤلفون استقلالية سياسية . لقد أعطت

---

(52) Jean LoupAMSELLE, Aucceurdel'ethnie, op.cit, p15.

(53) Ibid, p 16.

(٥٤) محمد نجيب بو طالب ، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، ٢٠٠٢ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٥٥) المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

(56) Guy NICOLAS, Fait ethnique, op.cit, pll3.

الناحية السياسية مبررا لعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا كى يعمقوا هذا البعد وخصوصاً لدى الانقساميين حين اهتموا بالدور السياسى للصلحاء فى إعادة التوازن بين القبائل وبعلاقة هذه الأخيرة بالدولة المركزية مما كتف الأسئلة حول الفاعلين القبليين وبالخصوص الصلحاء منهم . فهل هم خارج اللعبة السياسية القبلية ودورهم تحكيمى بالأساس يمتصون به مخزون اللامساواة الكامن لدى فئات العوام ؟ (٥٧) أم أن هؤلاء الصلحاء ليسوا خارج السياق الاجتماعى ورهاناته لأنهم جزء من تراتبية اجتماعية وسياسية يفعلون فيها ويستثمرونها ؟؟

أعطت مثل هذه الأسئلة وغيرها إمكانية لا يستهان بها لإعادة التفكير فى تعريف مفهوم القبيلة . لقد فتح "جاك بيرك" هذا التوجه منذ كتب مقالته "فى مدلولة القبيلة"بشمال افريقيا .

وهى مقالة نشرت فى بداية الخمسينات من القرن الماضى وبدت تتويجا لمعرفة حول الظاهرة القبيلة التى مارسها "بيرك" فى المغرب والجزائر بأشكال متعددة.

من المفيد الإشارة إلى أن "بيرك" قد استعمل تعبيرات إثنية فى هذا المقال والأقرب أنه استعملها مرادفة لمعنى القبيلة . وما يهمنا أكثر أن "بيرك" قد بدأ فى التساؤل عن مدلول كلمة قبيلة بدعوته إلى تتبع تاريخها والبحث فى صنوف

---

(٥٧) عبد الله الحمودي ، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة ، ملاحظات حول أطروحات كلينر ، الأنتروبولوجيا والتاريخ (مؤلف جماعي) ، دار توبقات للنشر . الدار البيضاء ، المغرب ١٩٨٨ ، ص ٧٠ .

* Jacques BERQUE, « Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine ? », L'éventail de l'histoire vivante. Mélanges Lucien Fevre, 1954.

استعمالها [٥٨]. ويرمى تساؤله هذا إلى إخراج مفهوم القبيلة من مستوى المعطى الجوهرى الأساسى القائم على ركائز ثابتة إلى مستوى آخر يضع القبيلة كتشكيلة اجتماعية من حركة التاريخ وبالتالي ضمن ديناميكية المجتمعات الباحثة عن أشكال مختلفة لهويتها تنتجها وتدافع عنهاوترممها وتفاوض من أجلها.

يدخل "بيرك" متغير اللغة لفهم نشاة القبيلة وينفد إلى العلامات التى تحوم حول ظهور هذه الوحدة الاجتماعية . ويرى فى اسم القبيلة وفى كيفية بروزه خيطا رفيعا يكشف الوقائع ويبررها "إن ما يهم بطبيعة الحال ، هو الأسم لأن له قيمة اجتماعية كبرى [٥٩] ويضيف فى موقع آخر فاذا ركزنا على الظواهر اللغوية ، قد نتقدم فى فهم عبقرية ذلك الرجل الذى كثيراً ما ساهمت ميوله الخطابية وقدرته على إعادة التأويل فى تغطية الوقائع أو حتى تشويهها [٦٠].

فالأسم محرك مثير للتصنيفات وبالتالى للصراعات فهو العلامة الأولى لهوية أية مجموعة بشرية والاسم رهان أيضا لأنه يطرح الأسئلة التالية : من يتولى مسؤولية التسمية ؟؟

داخل أى سياق تظهر ؟ من هو المعنى بها ؟؟ ما هى مضامينها ؟؟ وماذا تفيد استعمالاتها ؟؟

تخرجنا هذه الأسئلة من سياق لتضعنا فى آخر مخالف له فهى تحملنا من التفكير فى طبيعة الأشياء إلى التفكير فى استعمالاتها أى فى تلك الحركة

---

(٥٨) جاك بيرك ، «في مدلول القبيلة» بشمال إفريقيا ، كتاب الأنتروبولوجيا والتاريخ ، مرجع مذكور سابقاً ، ص ١١٣ .

(٥٩) نفس المرجع ، ص ١١٧ .

(٦٠) نفس المرجع ، ص ١١٨ .

المانحة معنى لكل مجهود يبذل من أجل تعريف الذات وإعلان الاختلاف عن الآخر . إن البحث في تاريخ التسمية هو إطلالة في العمق على الذاكرة الشفوية التي توزع الأسماء والأحداث والوقائع ولكنها ذاكرة انتقائية تثمن كل ما يتصل باستراتيجيتها وتنسى أو تقصى كل ما يعيقها . إن ذاكرة الأسماء التي دعا "بيرك" إلى تفكيكها تخفي تقاطعات جغرافية وسياسية ورمزية إذ تتكرر نفس أسماء المجموعات هنا وهناك عبر مجال المغرب الكبير [٦١] ويستثمر الاسم في تأكيد الذات وتقويتها كما تنخرط داخله مجموعات أخرى باحثة عن هوية مرتقبة وتمنح حركات الهجرة في هذا المجال المتسع إمكانيات عديدة لإقامة التحالفات وصون الامتيازات هذا الحراك الكبير الذي عاشته منطقة المغرب الكبير كشفته الرموز والعلاقات وبدت الكلمات ذات فاعلية في ترتيب الأشياء وإعادة ترتيبها من جديد.

وبهذا فتح "بيرك" نافذة لا تزال فاعلة إلى الآن لتناول الظاهرة القبلية وهي نافذة الظاهرة اللغوية وما يتبعها من علامات ورموز عند بناء الأفراد والمجموعات لهوياتهم وعند الرغبة في التمايز عن الآخرين .

فهل القبيلة أو المجموعة الإثنية من هذا المنطلق بناء لغوي ورمزي ؟؟ وهل الحدود بين المجموعات هي أيضاً حدودلغوية ورمزية وإذا تقدمنا بالسؤال إلى الأمام هل يمكن القول بأن القبيلة أو المجموعة الإثنية غير موجودة إلا في أذهان من يبتكرها بما أن لكل قبيلته ولكل مجموعته الإثنية ؟؟ وماذا عن التضارب الكبير عند تصنيف القبائل بين إدارة إستعمارية لها خلفياتها وأهالي يقدمون معلومات في أغلبها فخاخ؟

---

(٦١) جاك بيرك ، «في مدلول القبيلة» بشمال إفريقيا ، كتاب الأنتروبولوجيا والتاريخ ، مرجع مذكور سابقاً ، ص ١١٧ .

مقاربات الظاهرة الإثنية :

يستدعى التعرض لنظريات الظاهرة الإثنية التفريق بين الجماعة الإثنية والظاهرة الإثنية L'éthnicité فاذا كانت الجماعة الإثنية تلك التشكيلية الاجتماعية ذات العناصر المحددة والتى نقيس بها مجموعة بشرية لنميزها عن مجموعات أخرى فصادف أن استعمالها الانتروبولوجيون وصنفوا بها البشر ، فان الظاهرة الإثنية هى ذاك المسار الاجتماعى الذى تنسجه الجماعة الإثنية لتأكيد وجودها والدفاع عنه والاستمرار فى التعبير عنه . إن الظاهرة الإثنية هى الهوية الإثنية فى حالة حركة وفعل (٦٢).

يرجع ظهور مفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية إلى أربعنيات القرن الماضى وكانت كلمة ethnicity تعنى فى البداية انتماء لا يدخل ضمنه الأنقلوا - أمريكيين وهى المجموعة البيضاء الوحيدة التى ليس لها أصل قومى خلافا للايطاليين والإيرلنديين وغيرهم (٦٣) . واستعمل المفهوم كمتغير مستقل مثل الجنس والعرق والديانة لدراسة تأثيرات الإثنية على سلوك الأفراد والمجموعات (٦٤) واعتمدت الاستبيانات التى تقوم بها مراكز الأبحاث والجامعات الأمريكية على هذا المتغير أى الانتماء الإثنى من خلال إدراج السؤال التالى من أى بلد ينحدر أغلب أجدادك(٦٥)؟

---

(62) Philippe BATAILLE, La sociologic des mouvements sociaux et l'ethnicite, Une comparaison internationale, In Sociologies et sociétés, volume XXIX n°2, automne, 1997, pp 172-173.

(63) Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FERNART, theories de ltethnicite, op. cit, p22

(64) Ibid, p 22.

(65) Ibid, p 23.

إلا أن الاستعمال المكثف لمفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية يعود إلى سبعنيات القرن العشرين مع إصدار مجلة مختصة هى Ethnicity سنة ١٩٧٤. (٦٦) واقترن هذا الاستعمال بنشأة الصراعات التى سميت آنذاك بالصراعات الإثنية سواء فى المجتمعات الصناعية أو فى مجتمعات العالم الثالث وفى المجتمعات المتعددة الإثنيات كما فى المجتمعات التى تبدو متجانسة ثقافياً مثل كندا وبلجيكا.

ما يهمّ فى هذا الشأن أن تصبح الإنتماءات والختلافات الإثنية شكلا من أشكال التراتب الاجتماعى. وهذا ما ذهبت إليه العلوم الاجتماعية الأمريكية وحاولت تأكيده. ولكننا أمام اعتبار الإنتماء الإثنى أحد عناصر قراءة الواقع الأجتماعى وربما يكون الأهم فى نظر السوسيولوجيا الأمريكية فانه من المفيد أن تقدم الملاحظتين التاليتين.

- الملاحظة الأولى هى: انتقال مفهوم الظاهرة الإثنية إلى سياق آحر هو سياق المجتمعات الصناعية بعد أن عرف بداياته الأولى فى مجتمعات "تقليدية" واستثمرية الأنتروبولوجيا لتصنيف المجموعات البشرية ودراستها. إن عودة المفهوم إلى فضاءات المجتمعات الصناعية هى إمكانية أكبر للسوسيولوجيا كى تدخله ضمن مفاهيمها لقراءة المجتمعات المركبة وخصوصا تلك التى تعرف تعددية إثنية. ما يعنى إعادة النظر فى المضامين والفوراق بين المجتمعات "التقليدية" والمجتمعات المسماة "متحضرة".

- الملاحظة الثانية: إن سباقية بروز مفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية وتصدّره المفاهيم المستعملة لقراءة الواقع الاجتماعى لا يرجع فقط إلى

---

(66) Ibid, p 24.

أن المجتمع الأمريكى هو مجتمع تعدّدى الإثنيات بل لأن هذا المفهوم قد أفعى إلى حدّ كبير علماء الاجتماع الأمريكيين من قراءة مجتمعهم قراءة طبقية أى باستعمال مفهوم الطبقة الاجتماعية للدلالة على الترابية الاجتاعية مثلما فعلت السوسيولوجيا الأوروبية.

لا تضع السوسيولوجيا الأمريكية الصراع الطبقى والمشكلات الطبيقة ضمن محاور اهتماماتها [٦٧]. فهى سوسيولوجيا تبحث عن الاندماج وأشكال تجسيده وسؤالها البارز هو كيف الوصول إلى مجتمع يحقق فيه الفرد اندماجه فى المجموعة؟ وكيف العمل لإدماج الأقليات الإثنية ضمن النسيج المجتمعى القومى ؟ [٦٨] يقول "بول براس"Paul BRASS إن المجموعة الإثنية هى شكل بديل عن التنظيم الاجتماعى الطبقى والظاهرة الإثنية هى شكل هوّياتى بديل عن الوعى الطبقى"[٦٩].

إن اعتماد مفهوم الظاهرة الإثنية داخل نسيج العلوم الاجتماعية يكشف هن تحولّ عميق فى قراءة الواقع الاجتماعى وبالذات واقع المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية . لقد دافعت نظريات التحديث دوما على ثنائيات التقليد والحداثة، الجماعة والمجتمع، الفرد والمجموعة، التضامن والتفكك واستعملتها بصيغ تنافرية لتميّز بين المجتمعات والثاقافات فأوجدت من جهة المجتمعات

---

(67) Raymond ARON, La société americaine et sa sociologic, In cahiers Internationaux de sociologic, volume XXVI, 1959, reaparu dans les cahiers, volume 101, 1996, p 132.

(68) Ibid, pp 130-131.

(69) Paul BRASS, Cite par POUTIGNAT et STREIFF-FERNART, In theories de l'éthinicité, op. cat, p 26.

التقليدية المتجانسة والتضامنية وعديمة الحركة وأظهرت من جهة ثانية المجتمعات المتطورة والفردانية والمتحركة. يبرز هنا مفهوم الظاهرة الإثنية ليبيّنأن ما اعتُبر حكراً على المجتمعات التقليدية يمكن أن يتواصل داخل المجتمعات الصناعية وأن التضمانات التى هى علامة من علامات المجتمعات التقليدية هى على العكش جزء من النسيج المجتمعى الصناعى. وأن الروابط الإثنية بعيدة عن أن تكون ضحية من ضحايا مسارات التحديث التى تعرفها المجتمعات. وعلى الطرف الآخر لم تكن المجتمعات "التقليدية" ساكنة وثابتة ومتجانسة وهى ليست مجتمعات متكونة من مجموعات بشرية متلاصقة ومتجاوة سمّيت قبائل أو مجموعات إثنية إنها على العكس مجتمعات متحركة تؤثر فى محيطها وتتأثر به المجموعات الإثنية بروابطها المختلفة لا تكف عن الظهور والاختفاء، عن التكون والانحلال. وهى فى علاقات مع حركات الهجرة والتجارة والحروب وظهور الدول واختفائها لذلك لم تكن لهذه المجموعات الإثنية فى إفريقيا مثلا هوية ثابتة لا تخضع للتغيّر. ويتحدّث "جون لوب أمسال"J.L AMSELLE عن المجتمعات الإفريقية حتى قبل دخول القويالاستعمارية على أنها تشكل سلسلة مجتمعات Chaines de docietes (٧٠) تجمع بينها علاقات تجارية وسياسية واجتماعية ودينية. لقد أنتجت هذه الروابط مجموعة فضاءات ما قبل استعمارية هى بالأساس فضاءات إنتاج وتبادل واستهلاك مثلما أفرزت فضاءات سياسية وحربية غلطُت مناطق ممتدة من إفريقيا.

ليس هناك إذا ما يبرّز استعمال المجموعة الإثنية أو الظاهرة الإثنية لتفسير مع يقع فى المجتمعات الإفريقية. لأن هذه المجتمعات ليست مخصتة دون غيرها

(70) Jean Loup AMSELLE, Au cccur de l'ethnie, op. cit, p 23.

فى إنتاج الظاهرة الإثنية، لأنها ظاهرة كونية. ثم أن استعمال الصراعات هى الصراعات السياسية والإقتصادية والإجتاعية تستنجد بها القوى الإستعمارية سابقا وحتى الدول الوطنية الان. (٧١) قد يكون البعد الإثنى إجابة ثقافية عن مشكل (٧٢) ولكنه من غير الممكن أن يختزل لوحده كل أبعاد الصراع... إن انعدام مبرر استعمال ما هو إثنى لوصف المجتمعات الإفريقية على سبيل المثال يعود إلى المراجعات التى خضع لها مفهوم الظاهرة الإثنية وإلى إعادة التعريف

التى خضع لها مفهوم الظاهرة الإثنية وإلى إعادة التعريف التى مكنته منها مقاربات جديدة وإلى الفضاءات غير المتعود عليها والتى أصبح من اليسير استعمال مفهوم الظاهرة الإثنية لقراءتها . ويعود أيضاً إلى أن التعارض الكلاسيكى بين التقليدى والحديث قد فقد أهليته لتفسير الإختلافات بين المجتمعات وفهمها .

١ - الظاهرة الإثنية كمعطى جوهرى

تستعيد هذه المقاربة على الرغم من تراجعها الكبير الانتماءات الأولية للأفراد وتقرها أساسية لتكون الظاهرة الإثنية أو الهوية الإثنية . والانتماءات الأولية هى تلك الإنتماءات المرتكزة على روابط الدم واللغة والأصل والدين والقيم المشتركة والمغذية شعورا طبيعيا بالانتساب لمجموعة دون أخرى . ويقوى الشعور بالتضامن بين أفراد المجموعة الإثنية ذلك الإعتقاد بأن قرابة دموية واقعية أو خيالية تجمعهم . (٧٣) فيبرز بينهم هذا الإستعداد للتعبير وبأشكال

---

(71) Ibid, p 40.

(72) Philippe POUTIGNAT, theories de l'éthnicité, op. cit. p 92.

(73) Ibid, p 98.

متعددة عن انتماء لروابط أولية مجموعة حاجات مثل الحاجة إلى الانتساب والحاجة إلى أن يكون الفرد مقبولاً من الآخرين والحاجة إلى امتلاك صورة جيدة حول ذاته . ومن بين الانتماءات العديدة المتاحة يرى الفرد فى الانتماء لمجموعة إثنية ذاك الملاذ الوحيد الذى لا يشعر داخلة الفرد بالعزلة والاقصاء .(٧٤)

إن ما هو جوهرى فى المجموعة الاثنية هو الإيمان بخصوصية الروابط الأولية خلافاً لأية روابط أخرى ممكنة . والجوهرى هو النظر لها كمعطى أولى وأساسى وبالتالى عزل كل ما ينجر عنها من تفاعلات .فالنظرة الماقبلية للأنتماء الإثنى تعنى الوقوف عند المحددات المسماة موضوعية والخارجة عن نطاق الأفراد والمستقلة عن وجودهم دون التفكير فى الكيفية التى تنشأ بها هذه المحددات ودون التنبه إلى أنها محددات متحركة .

تعرضت هذه المقاربة إلى انتقادات عديدة . وأهمها التى اتجهت نحو اعتبار الإكتفاء بالمعطيات الجوهرية والأولية لتفسير الإنتماء الإثنى من شأنه أن يغيب السؤال المحورى وهو نشأة الروابط الإثنية وتكونها والآليات الثقافية التى ولدت مشاعر الانتماء وقامت برعايتها .(٧٥)

فمشاعر الانتماء الإثنى غير القابلة للوصف والمنفلتة عم قدرات الافراد وتحكمهم فيها ليست مشاعر معرفة موضوعيا وليست بمنآى عن التفاعل الاجتماعى والتعامل معها لا يقصى القدرة لدى الفاعلين للتساؤل دوماً حول شروط انتمائهم الإثنى . ويتغير السؤال عم ماهية الوجود الإثنى إلى سؤال عن

---

(74) Ibid, p 99.

(75) Ibid, p 100.

متى ولماذا يكون البناء الاجتماعى للواقع منجزاً باستعمال مفردات إثنية ؟؟[٧٦] أى ما هى شروط ظهور الهوية الإثنية ؟؟

يقدم "غيرتز" GEERTZ قراءة ديناميكية لما يمكن تسميته بالإنتماء الإثنى، وفى ظل هذه القراءة يتراجع التعريف الإثنى للذات كتعريف موضوعى ونهائى وثابت . ويأخذ "غيرتز" مفهوماً متداولاً وقريباً من التجربة اليومية هو مفهوم "النسبة" فى منطقة "صفرو" المغربية"و النسبة" هى ذاك النسق الثقافى والاجتماعى الذى تتفاعل داخله وتتحرك مختلف الهويات وتعبر عن وجودها وهى تلك الأداة الرمزية التى تميز الناس عن بعضهم وتعطى صورة عن المعانى التى يكون بها الإنسان إنسانا .[٧٧] ويطرح "غيرتز" فكرة مفادها أن "النسبة" هى استراتيجية تموقع Une stratégie de positionnement يختارها الفرد أو يستعملها كلما تطلب السياق ذلك .وهذه "النسبة" هى فسيفساء من الانتماءات تتيح للفرد حركة أفضل ليعبر عن ئاته ويعرفها وتكسبه ثقة يستطيع بها أن يكون براغماتيا ومتمكنا وقادرا على التبدل مع كل الأحداث . ولأنها استراتيجية تموقع فإنها تنشط وفق شبكة العلاقات المتنوعة التى يمتلكها الفرد . فيترك جانبا المضمون الجوهرى لهويته مثل الأصل واللغة والدين وغيرها ليلتفت إلى السياقات الآخرى المفتوحة أمامه والتى يتفاعل داخلها مع فاعلين آخرين مثل سياقات العمل والمبادلات التجارية والفعل السياسى ، هنا سيطوع الفرد هويته وينتقى منها ما يراه مناسباً على قاعدة الربح والخسارة فى أبعادها المادية

---

(76) Ibid, p 92.

(77) Clifford GEERTZ, savoir local, savoir global, Editions PUF, 1986, Traduit de l'anglais par denise PAULME. p 83.

والرمزية . كل شيئ رهين فى جزء كبير منه بالوضعية [٧٨] التى يتخذها الفرد كلما أراد أن يعرف نفسه ويعرف الآخرين من حوله .

٢ - الظاهرة الإثنية كنسق ثقافى

تمنح المقاربة حضوراً مكثفاً للبعد الثقافى وترى فيه المحرك الأساسى للانتماء الإثنى او لتشكيل الهوية الاثنية . وتقف هذه النقاربة على النقيض من إعتبار الانتماء الاثنى إنتماء جوهرياومتأصلا، كما ترفض وجهة النظر الأداتية التى ترى فى المقموعة الإثنية مجرد تعبير عن مصالح اقتصادية وسياسية وإجتماعية ولا تعترف بالنشاط الرمزى الذى تخوضه المجموعة الإثنية . [٧٩]

تعرف المقاربة الثقافية الظاهرة الإثنية بأنها ذلك النسق الثقافى الذى يتمكن به الافراد من تحديد مكتنهم داخل نظام إجتماعى أوسع . [٨٠] ولكن النسق الثقافى الذى تعطيه هذه المقاربة مكانة متميزة يقدم بدوره تعريفا للثقافة يتجاوز التعريف التقليدى الذى يعدها معطى كلى متجانس ومندمج أو أنها مجموعة العناصر أو الملامح القابلة للوصف . [٨١] وتسعى هذه المقاربة إلى رؤية الثقافة كمسار يقع بناؤه وكتفاعل يحصل بين مختلف الفاعلين فيعطونه الدلالة المناسبة .

إن الثقافة هى هذا النسق من المعانى الذى يفسح المجال أمام الأفراد ليتباداوا القيم والرموز وهى أيضاً تلك المعانى التى يسندها الفاعلون الاجتماعيون لأفعالهم بشكل مستمر ومتواصل وهى بالتالى معانى متحركة وغير ثابتة ولهذا

---

(78) Ibid, p 87.

(79) Philippe POUTIGNAT et.., op. cit, p 120.

(80) Ibid, p 120.

(81) Ibid. p 121.

يصعب فى نظر هذه المقاربة أن نحصر الثقافة ماقبليا فى مجموعة من القيم والعادات ونقيم عليها سياجاً ونضبط لها حدوداً دائمة تفصلها عن الثقافات الأخرى . الثقافة هى ما تجعل اللعبة الاجتماعية قابلة لأن تمارس .(٨٢) انطلاقاً من الخلفية الديناميكية للثقافة يعرض "دريمون" DRUMMOND نموذجا لرؤية الظاهوة الإثنية من حيث أنها " نسق رمزى أي مجموعة من الافكار المجبرة على التمييز بين الأنا والآخرين والتى تشكل قاعدة للفعل ومرتكزاً لتأويل أفعال الآخرين . (٨٣) ويؤدى هذا النموذج إلى النتيجة التالية وهى أنه لا توجد مجموعات إثنية معرفة ومحددة مسبقاً ولكن ثمة مجموعة متغيرة من المقولات Catégories التى لا تحمل دلالات إلا حين تسعف بتعريفات وباستعمالات من بشر لهم فهمهم وانتظاراتهم المشتركة حول موضوع الإختلافات الأساسية التى تفصل بين الأشخاص فى مجتمعهم .(٨٤)

ما يشغل هذه المقاربة إذن هو توضيح المضمون الثقافى والعلاقات الداخلية بين المقولات الإثنية والتى بداخلها يتحقق التواصل الدلالى للإختلاف بين الافراد. وتبدو الظاهرة الاثنية فى هذه الحالة مرتبطة بالرؤية الخاصة التى لهذه المقاربة حول مفهوم الثقافة كسياقات من المعنى سنتجها الفاعلون ويعيدون إنتاجها . فتجد هذه المقاربة نفسها لا أمام مجموعات إثنية بل أمام سياقات ما بين - إثنية يضمنها الفاعلون وهم فى وضع تفاعلى ما يسميه "فتغنشتاين" ألعاباً لغوية

---

(82) Clifford GEERTZ, cite par Bertrand BADIE, in cultures, identité, relations internationales, op. cit, p 9.

(83) DRUMMOND. L, cite par Philippe POUTIGNAT et ..., op. cit, p 121. Philippe POUTGNAT et... op. cit, p 121. Ibid, p 122.

(84) Ibid, p 135.

يمكن أن تكون حسب الوضعية متماثلة أو متشابكة أو غير محددة .[٨٥] ولكن الاختلافات الثقافية فى ذاتها ليست مصدرا لبروز الظاهره الاثنية إنه التواصل الثقافى الذى يسمح برسم الحدود بين المجموعات عبر رموز مفهومة ومتداولة.[٨٦]

٣ - الظاهرة الإثنية شكل من التفاعل الاجتماعى

يدخل الفاعلون الاجتماعيون وهم يمارسون حياتهم فى أشكال متعددة ومختلفة من التفاعلات الاجتماعية . وتؤدى بهم هذه التفاعلات الاجتماعية إلى بناء فكرة عن ذواتهم وعن الآخرين . ويتصرفون كأناس لهم دراية بما يحوم حولهم وينشطون كلما تعلق الامر بانجاز الحدود المادية والرمزية التى تفصلهم عما يسمونه آخر . ولكن وصولهم إلى بناء آخرية يعرفون من خلالها أنفسهم إنما يتم عبر التفاعل الاجتماعى . الانزواء والعزلة لا يخلقان صورة عن الذات ، والاكتفاء بالملامح الثقافية كملامح متأصلة وثابتة وجوهرية يعيق إلى حد بعيد فهما دقيقاً للذات وللآخر . يمارس الافراد إذن هويتهم ويتولون بناءها باتباع مسارات متعددة ولا يعنى هذا غياب عناصر ثقافية أو قيم تساهم فى هذا البناء. إن حضورها ليس ثابتاً وليس معطى غير قابل للحركة ، إذ فى تفعيل هذه العناصر الثقافية وشحنها كل مرة بمضامين مناسبة للوضعية وللسياق تكمن القدرة التفاعلية للفاعلين الاجتماعيين .

إن الظاهرة الإثنية بما هى شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى لا تتناسب مع المقاربة الجوهرية لأن التفلعل الاجتماعى هو فى الوقت نفسه حركه مستمره

---

(85) Ibid. p 122.

(86) Ibid. p 135.

وسعى إستراتيجى وبحث عن دلالة وتلاؤم مع سياق وتكيف مع حدث وإنتاج لرموز ومفاوضة من أجل معنى وصراع حوله . وبما أن الظاهرة الاثنية شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى فهذا يعنى أنها مسار متواصل من أجل التمييز بين الأنا والآخر لا يمكن إنجازه ولا يحقق جدواه إلا ضمن نسيج من العلاقات الاجتماعية ذات البعد التفاعلى .

يؤكد "فريدريك بارث" فى نظريته حول الحدود الإثنية أن ما نسميه مجموعات إثنية لا يستوى إلا حين نعرفها كوحدات تتحرك من أجل الإبقاء على حدودها. ويعنى تحركها للإبقاء على هذه الحدود ورعايتها أنها فى حالة تفاعل اجتماعى . فكلما تحركت المجموعة الإثنية من أجل هذه المهمة كان ذلك ضامنا لوجودها . ويصبح السؤال المهم متعلقاً بالشروط الاجتماعية المولدة لظهور الفوارق مع التغيرات الثقافية (٨٧).

تتشكل الهوية الإثنية وهى فى حالة إنجاز تقورها استراتيجيات الفاعلين ورهاناتهم. وتعنى حالة التشكل هذه تغير المضامين التى يلحقها الناس برموزهم وبمعيشهم الاجتماعى . فنقف كل مرة على تحوير فى دلالات الأشياء نابع من الاستعمالات المختلفة لهذة الأشياء وفق الوضعيات السياقات التى قدر الفاعلون أنها مناسبة لهم. فليس للأشياء طبيعة ثابتة بل لها على العكس استعمالات متعددة ومضامين متجددة .

يظهر تجدد المضامين فى ما تخفيه هوية السود فى واحات نفراوة مثلاً . فهل يمكن الحديث عن هوية جامدة لهذه المجموعة ترتكز أساسا على عناصر اللون

---

(87) Ibid, p 124.

والأصل والوضعية الاجتماعية المتردية وكأنها عناصر موروثة؟ أم أننا أمام حالات تعاقدية تفاوضية يسعى بمقتضاها السود إلى إعطاء معنى جديد لحدودهم الإثنية وبالتالى لهويتهم الإثنية؟؟

تجربتنا فى دراسة حول قرية واحية بنفراوة [٨٨] يعيش فيها البيض والسود دلت على أن هوية السود ، والشواشين إذا استعملنا العبارة المحلية ، بناء اجتماعى يتشكل تفاعليا مع الآخرين أى البيض .فأن تكون من الشواشين فى هذه القرية يختلف إلى حد كبير عما كان عليه "الشواشين" فيها سابقا . إن تغير الوضعية وبالتالى تغير النظرة والحدود يعود إلى أن هؤلاء "الشواشين" قد دخلوا الآن فئة مالكى غابات النخيل ولم يعد "الشوشان" إذا عرفناه هو ذلك الشخص الذى يتبع سيده ويقوم بكل الخدمات الزراعية فى الواحة وتتولى زوجته "الشوشانة" الإعتناء بكل طلبات المنزل. إن "الشوشان" داخل هذا السياق لاحق له فى الملكية وغياب هذاالحق أبدى لأن هؤلاء "الشواشين" جعلوا لخدمة "أسيادهم" من البيض ولأنهم سود فهذا مبرر كاف كى يتم إقصاؤهم عن مواقع الحياة الرئيسية . هذا شكل من الحدود الإثنية التى يرسمها الفاعلون لتعريف ذواتهم وتعريف الآخرين ولكن هذه الحدود ليست ثابتة ، وإنما تقع صياغتها وإعادة تشكيلها من جديد . فهولاء "الشواشين" تمكنوا من إعطاء تعريف مغاير لهويتهم يرتكز على دخولهم فئة المالكين لغابات النخيل. ولكن كيف تم بناء هذه الهوية المبتكرة؟؟

---

(٨٨) محمد جويلي : سود الواحات : دراسة سوسيو ـ أنتربولوجية في استراتيجيات المعني ، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، تونس ، فيفري ٢٠٠٢ ، إشراف ، د. طاهر لبيب .

لقد انفتحت أمام "الشواشين" مجالات الهجرة منذ بداية السبعينات ومكنتهم هذه الظاهرة من مراكمة ثروة مناسبة لشراء النخيل فى القرية . واستغلوا تراجع اهتمام مالكيها الأصليين بها ليشتروا ما يرونه مناسبا لهم. ويتمثل تراجع الاهتمام بغابات النخيل من طرف البيض أولا فى توقف استمرارية العمل فى هذه الغابات ، فمن جهة شهدنا مغادرة الذين كانوا يعملون فى الغابات إلى بلدان الهجرة ومن جهة ثانية دخل أبناء المالكين من البيض إلى الوظائف الحكومية وغادرواالقرية إلى جهات مختلفة ومنها العاصمة فلم تعد ملكية غابات النخيل لوحدها مناسبة للإرتقاءالاجتماعى . هذا الفراغ استثمره "الشواشين" الذين هاجروا إلى فرنسا واقتنوا مزارع نخيل كانوا فيها خداما فى السابق فأصبحوا الآن أسيادها. شكل من الثأرالرمزى يريد "الشواشين" تحقيقه فى القرية ليثبتوا لأنفسهم وللآخرين أن مضمون تسمية "شوشان" قد تغيرت . وأن اللايقين الذى ميز هويتهم الإثنية قد غدا شعورا بالثقة والفخر . يذهب "الشواشين" إلى أبعد من هذا فى بناء هويتهم الجديدة إنهم يؤجرون عمالاً من جهات مجاورة للإشتغال فى غابات نخيلهم . ولكن المثير فى هذا أن هؤلاء الأجراء هم من البيض . وكأن "الشواشين" يريدون بذلك تذكير أنفسهم وخصوصاً البيض بأنهم أصبحوا الآن أسياد القرية.

لم يكن دخول "الشواشين" لفئة المالكين لغايات اقتصادية فقط إنما هم يبحثون عن الرموز وعن المعنى الذى يساعد على بناء تصورات مغايرة لما كانوا عليه فى السابق. وتكفى الإشارة إلى أن القيمة الرمزية لغابات النخيل المقتناه ليست واحدة إذ تأتى فى القمة عملية اقتناء لغابة كان شاريها أحد"الخماسة" ممن

تولوا زراعتها والاعتناء بها. هذا حدث مثير فى القرية لأنه يشكل خرقا مهما للحدود الإثنية التى بناها البيض بل أنه المستوى الأكثر إهانة من الناحية الرمزية لمن يعتقد بأن الحدود الإثنية حدود أزلية لا تتغير.

إن البناء الرمزى للحدود الإثنية فى هذه القرية هو بناء تفاعلى يخضع لرؤية الفاعلين ولتعاملهم مع الوضعيات والسياقات المختلفة. ولذلك يميز " الشواشين" بين مكونات فئة المالكين فلا تشابه بين من اشترى غابة نخيل كان فيها"خماسا" وبين من امتلك غابة نخيل هبة من الدولة . بين الإثنين ثمة فوارق فى الأداء وفى رد الاعتبار وفى القدرة على المفاوضة لا من أجل امتلاك غابة النخيل فقط بل امتلاك الوضعية واكتساب القدرة على تعريفها.

لقد منح دخول "الشواشين" لفئة مالكى غابات النخيل مضمونا جديدا للواجهة التى يريدون بها تفاعلاتهم فى الفضاءات القروية المختلفة. وأعطى هذا الدخول شحنة مغايرة لمعنى أن تكون من "الشواشين" كهوية يقع توارثها . البعد التعاقدى خلافا للبعد الموروثى منتجا لعلاقات جديدة ورموز متجددة وحدود إثنية فى حالة تفاعل رمزى. والإبقاء على هذه الحدود الإثنية ورعايتها إنما بتأتيات من تحريك هذه الحدود والسعى إلى إعادة تشكيلها كل مرة وابتكارها بطريقة يتخلص بها "الشواشين" من أسر مرجعية لطالما أرهقتهم هى الهوية المبنية على عناصر اللون والأصل والماضى. وهى غير قابلة فى نظرهم لأن تبقى ثابتة ودائمة كما يريدهاالآخرون ... الظاهرة الإثنية فى هذه الحالة جاهزة لأن تكون ظاهرة تفاوضية باستمرار...

٤ - البناء الاجتماعى للإثنيات

ليست الظاهرة الإثنية معطى اجتماعيا إنها على العكس بناء اجتماعى . والفارق بين المعطى والبناء هو أن الأول ثابت فى حين أن الثانى متحرك وتكفى الإشارة هنا إلى مجموعات المهاجرين فى الدول الغربية أو غيرها . فبمجرد وصول المهاجر إلى بلد الاستقبال تنفتح أمامه أشكال لا حصر لها لتعطيه هويته الجديدة. وتبدأ الحدود الإثنية بالتشكل عبر مسارات اجتماعية ورمزية متعددة . وتدخل فى بناء هذه الإثنية الجديدة مفاهيم الاندماج والاستيعاب والتكاتف وغيرها .

لقد برزت الظاهرة الإثنية كبناء اجتماعى مع مدرسة "شيكاغو" السوسيولوجية فى دراساتها حول العلاقات الإثنية التى تشكلت بتوافد المهاجرين على المجتمع الأمريكى . واتجهت اهتمامات هذه المدرسة السوسيولوجية إلى بحث الأشكال التى توفر لهذا المجتمع توازنا يستوعب به التنوّع الإثنى وخلقاته.

اقترح "بارك"Park وهو أحد علامات السوسيولوجيا الحضرية الأمريكية دورة للعلاقات الإثنية متركبة من أربعة عناصر[٨٩] هى:

- التنافس — التكيّف
- الصراع — الإستيعاب

وتعنى هذه العناصر، وهى مترابطة، الكيفيةالتى يؤسس بها الأفراد علاقاتهم الاجتماعية اعتمادا على اختلافاتهم الإثنية.

- **التنافس :** هو الشكل الأولى للتفاعل ولكنه تفاعل دون اتصال اجتماعى. ويتأسس هذا التنافس من غير أن تكون بين الأفراد علاقات

---

(89) Alain COULON, L'école de chicago, que saisje, P.U.F, 1994, p 37

اجتماعية. ولكنّه بالمقابل منفذا لتوزيع العمل وتأسيسا لقاعدة اقتصادية مميزة لكل مجموعة. ويسمح هذا التنافس بتشكيل علاقات ارتباط اقتصادية تبدأ ببلورة اتجاهات الأفراد نحو الصراع والتكيف والإستيعاب(٩٠).

- **الصراع :** ينشأ بين المجموعات والأفراد عندما يظهر لديهم هذا الوعى بأنهم متنافسون مع مجموعات أخرى. ويقترن هذا الصراع بحالة اندماج أكبر فى المجتمع فتظهر أشكال بين الأقليات ويبرز البُعد السياسى الذى يتدخل لتقوية شعور الأقلية بذاتها وباستعدادها للمواجهة(٩١).

- **الكيّف :** هو المجهود الذي يبذله الأفراد والمجموعات التى يواجهونها خلال مرحلتى التنافس والصراع. ويتولى التكيّف الإبقاء على وضعيات التنافس بين المجموعات أو الأقليات ولكنه يجلعها قابلة للإختلافات. ويقع تنظيم العلاقات الاجتماعية بين المجموعات بهدفس التنقيص من الصراعات ومراقبة التنافسات وضمان أمن الأفراد واستقرارهم(٩٢).

- **الاستيعاب:** هو وضعية تتغير معها أشكال العلاقات الاجتماعية السابقة ومضمونها. ويحدث خلال هذه المرحلة أن يقترب الأفراد أكثر من بعضهم البعض بالرغم من اختلافاتهم الكبيرة. ويحلّ الآخر محلّ الذات ويشترك الأفراد فى مسائل كانت تفرّقهم فى الماضى مثل

---

(90) Ibid, p 38.

(91) Ibid, p 38

(92) Ibid, p 39

الذاكرة والمواقف والمشاعر والتجارب الشخصية. إن الاستيعاب هو مسار يتولى خلاله الأفراد أو المجموعات أو الأقليات المشاركة فى أداء وظائفهم كعناصر فى مجتمع مع المحافظة على خصائصهم الثقافية(٩٣).

تمثيل هذه المراحل الأربع نموذجا لأهمّ النظريات الاستيعابية التى سادت طويلا فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن يفقد هذا النموذج إلى خلفية تاريخية وإلى رؤية ديناميكية لأنه يحصر العلاقات الإثنية فى مجردّ تطوّر نحو الإندماج والتثاقف(٩٤) وحتى المحافظة على الخصوصيات التى يعتبرها هذا النموذج جزء من عملية الاستيعاب لا تعدو أن تكون سوى خصوصيات إثنية بلا حركة أى أنها مجرّد خصوصيات وصفية أو إسنادية. وخلافا لهذه الرؤية الستاتيكية للعلاقات الإثنية ولوجود المهاجرين فى مجتمع متعدّد الإثبات والثقافات يقترح "ميشال فيفيوركا" Michel WIEVIORKA شكلا لبناء المجموعة الإثنية لذاتها ولعلاقاتها مع الآخرين ويأخذ نموذج المجموعات المهاجرة فى فرنسا التى مرّت بثلاث مراحل حتى تدخل ضمن الفضاء الإثنى الفرنسى(٩٥).

المرحلة الأولى:

هى مرحلة الصّحوة الإثنية مع نهاية الستينات من القرن الماضى والمقترنة ببدايات أزمة الدولة الأمة فى أوروبا. وسعت المجموعات الإثنية المختلفة فى هذه

---

(93) Ibid, p 40.

(94) William A. DOUGLASS et Stanford M. LYMAN, L'ethnie: structure, processus et saillance, in cahiers Internationaux de sociologic, volume, LXI, 1976, p 210.

(95) Michel WIEVIORKA, la democratic a l'epreuve, nationalisme, populisme, ethnicite. Editions la decouverte, Paris. 1993. pp 1 10-1 15.

المجتمعات إلى التعبير عن خصوصياتها الثقافية وبدأت فى البحث عن جذورها وتحركت من أجل إعلان خصوصياتها. وبدت الظاهرة الإثنية تأكيدا ثقافيا بالرغم من شحنتها الاجتماعية.

المرحلة الثانية:

بدأت هذه المرحلة مع الثمانينات من القرن الماضى واتّسمت بحضور مكثف للمهاجرين فى تأكيد الهوية الإثنية وهؤلاء المهاجرون هم أساسا قادمون إلي فرنسا بعد حصول مستعمراتها القديمة على استقلالها. وميزة هذه المرحلة أنها بدأت تشهد مسارات متعدّدة من الإقصاء والميز العنصرى وكُره الأجانب ضمن سياق اقتصادى مشحون بالبطالة وبأزمة اقتصادية عالمية وتوجه نحو تراجع الدولة عن مهامهَا التقليدية. لقد أصبح المهاجر فى هذه الظروف حاملا لصورة المنافس لأهالى البلد وجزءا من حالة التردّى العام. ومن هنا أصبح المهاجرون يدخلون شيئا فشيئا لما يُسمّى المجموعات الإثنية وبدأت وسائل الاتصال العام تستخدم المصطلحات الإثنية لتمييز تلك المجموعات الهاجرة عن بقية المجموعات الأخرى أو لوصف الفضاءات التى يرتادها المهارجون أو يستقرّون بها. وعلى النقيض من هذا المسار المتجه نحو نعت المهاجرين بأوصاف إثنية لم يكن ينظر للمهاجرين قبل هذه المرحلة إلا باعتبارهم عمّالا مهاجرين لا زالوا يحافظون بشكل واضح على اختلافاتهم الثقافية والاجتماعية ويندمجون فى سوق العمل ولا يشكلون مأزقا أمام الثقافة السائدة.

المرحلة الثالثة:

هى مرحلة بدأت تتضح فيها الرؤية للمجموعات المهاجرة وأخذت فكرة الدفاع عن الحدود الإثنية فى التبلور على كلّ المستويات. وظهرت مخاوف عديدة

لدى الأغلبية من أن المجتمع الفرنسى وثقافته يعيشان تهديدا مستمراً وخصوصا إذا اقترنت أشكال إثبات الهويات الإثنية بالبُعد الدينى. وتحركت المواقف المعادية للمجموعات الإثنية على أسس البحث عن الأمان والإستقرار وذلك بطرد من هم فى وضع غير قانونى وعزل البقيّة أو إخضاعها لقيم الثقافة السائدة أو إدماجها.

كليا فى المجتمع الفرنسى. وظهرت فى هذا السياق أو صاف عديدة تخصّ علاقات هذه المجموعات الإثنية بكل الفضاءات المستعملة كان توصف أحداث الشغب الحضرية بأنها أحداث شغب إثنية أو الأحياء التى يقطنها المهاجرون بأنها أحياء إثنية وهناك من الباحثين فى العلوم الاجتماعية من لا يتوانى عن استعمال مفهوم الفاعل الإثنى L'acteur ethnique .

لم يكن المهاجرون لمّاقدموا إلى فرنسا يشكلون مجموعات إثنية ولم يكون يُنظر إليهم كذلك. ولكن حين ظهرت الأزمات الاقتصادية والأجتماعية وتناقضت المعالم وتباينت الاستراتيجيات وتكاثرت الأزمات الحضرية وصعدت الخصوصيات الثقافية وقتها نُعت الأجانب والمهاجرون خصوصا بصفات إثنية وبرزت الظاهرة الإثنية كتشكيلة اجتماعية تصنع الهويّات وتدافع عنها.

لقد نظر لهذه الهويات الصاعدة فى علاقتها الجدالية مع المواطنة كتهديد مستمر لمبادئ الجمهورية ومنهامبدائك اللائكية واعتبرت المجموعات الإثنية فى الفضاءات الحضرية بالخصوص أكثر ترشيحا من غيرها لحمل هذا التهديد(٩٦).

ويكاد يكون هذا التهديد منحصرا فى المجموعات الإثنية ذات المرجعية الدينية الإسلامية.

---

(96) Christian RINAUDO, L'ethnicite dans la cite, jeux et enjeux de la catégorization ethnique, Editions l'Harmattan, 1999, pp 8-9.

خاتمـــة

لم يكن سهلا إعطاء تعريف للجماعة الإثنية وللظاهرة والإثنية. وتتواصل هذه الصعوبة إذا اخترنا المقاربة الديناميكية التى لا تكفى بالنظر للجماعة الإثنية كجملة معطيات وصفية إسنادية ثابتة وجوهرية. إن الجماعة الإثنية على العكس من ذلك بناء اجتماعى ما يستدعى البحث فى السياقات التى أفرزت هذه التشكيلة الاجتماعية. ولم تكن الجماعة الإثنية بناء أنتربولوجيا نشأ فى سياق استعمارى، إنها أيضا صياغة أو ابتكار ما قبل استعمارى ولكن بأدوات وخلفيات وظروف مغايرة. إلا أن المثير فى كلّ هذا هو انتقال المفهوم من مجتمعات سُمّيت "تقليدية" إلى مجتمعات صناعية وما بعد صناعية أنجزت هى الأخرى جماعاتها الإثنية. فبدأت بمجموعات المهاجرين الوافدة وأعطتها الصفات والنعوت الإثنية كلّ حسب أصوله ولغته ودياناته ولونه وظروف قدومه . ولهذا يتميّز الأمريكين بين المجموعات الإثنية ذات الأصول الأوروبية والتى يسهل عليها الاندماج وبين الأقليّات العرقية كالسود والهنود الذين يصعب عليهم التلاؤم والتكيف مع القيم السائدة فى المجتمع.

ولم تكتف العلوم الاجتماعية برصد الظاهرة الإثنية كظاهرة مهاجرين بل تجاوزتها إلى البحث فى أشكال التضامن الناشئة فى هذه المجتمعات وبرزت الإثنيات الجديدة كطوائف عبدة المش ومجموعات الضغط الأقتصادية وجماعات الدفاع عن البيئة وغيرها والمشتغلة بمنطق مخالف عن إثنيات المهاجرين. ولكن ما يتميّز الظاهرة الإثنية فى المجتمعات الغربية أنها نتاج لحركة هذه المجتمعات وفى الوقت ذاتهنقيض لمبادئها الكبرى كالمواطنة والملائكية والفردانية والمساواة ما جيعل الظاهرة الإثنية رهانا ثقافيا ورهانا سياسيًا أيضا.

المراجع باللغة العربية

١- جاك بيرك، "فى مدلول القبيلة" بشمال إفريقيا، فى كتاب الأنتروبولوجيا والتاريخ (مؤلّف جماعى) دار توبقال للنشر، الدارالبيضاء المغرب ١٩٨٨.

٢- محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة فى المغرب العربى، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان،٢٠٠٢.

٣- عبد الله الحمودى، الإنقسامية والتراتب الاجتماعى والسلطة الساسية والقداسة، ملاحظات حول أطروحات كلينر، الأنتروبولوجيا والتاريخ (مؤلّف جماعى)، دار توبقال للنشر. الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٦.

٤- محمد جويلى: سُود الواحات : دراسة سوسيو - أنتربولوجية فى استراتيجيات المعنى ، أطروحة دكتوره فى علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، فيفرى ٢٠٠٢، إشارف، د. طاهر لبيب.

المراجع باللغة الفرنسية

1- Jean Loup-AMSELLE, Article «ethnic», in Encyclopédia Universialis corpus 7.

2- Jean Loup AMSELLE, L'ethnicité comme volonté et comme representation, A propos des Peul du Wasolon, In Annales, Economie, Sociétiés civilisation, 42éme Année n°2 Mars-Avril 1987.

3- Jean -Loup AMSELLE, Logiques metisses, Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Editions PAYOT, 1990.

4- Marc AUGE, ethnologue dans le metro, Paris, Editions Hachette, 1991.

5- Raymond ARON, La société americaine et sa sociologic, In cahiers Internationaux de sociologic, volume XXVI, 1959, reaparudanslescahiers, volume 101, 1996.

6- Fredrick BARTH, Les groupes ethniques etleurs frontieres, In theories de l'éthnicité.

7- Bertrand BADIE, Culture, identité, relations internationales, In Etudes Maghrébines, n°7, 1998.

8- Jean BAZIN, A chacun son Bambara, In au caeur de l'éthnie.

9- Philippe BATAILLE, La sociologic des mouvements sociaux et l'ethnicité, Une comparaison internationale, In Sociologies et sociétiés, volume XXIX n°2, automne, 1997.

10- Blumer, cite par T.K Oommen, In les relations entre race, ethnicité et classe, Revue Internationale des sciences sociales, n°139, Fevrier 1994.

11- Paul BRASS, Cite par POUTIGNAT et STREIFF-FERNART, In theories de l'éthinicité.

12- Christian BROMBERGER, Le match de footbal, ethnologic d'une passion partisane a marseille, Naples et Tunis, Paris, Maisan des sciences de l'homme, 1995.

13- Jhon CROWLEY, Ethnicité, Nation et contrat social, In theories du Nationalisme, Gil DELANNAI et P.A. TAGUIEFF (Dir), Editions KIME, 1991.

14- Alain COULON, L'école de chicago, que saisje, P.U.F, 1994.

15- Jean-François DORTIER, Les sciences humains, Panorama des connaissances, Editions sciences humains, Janvier 1998.

16- Jean-Pierre DOZON, Les Bété: une creation coloniale, In au coeur de l'éthnie, Sous la direction de Jean Loup AMSELLE et elikia M'BOKOLO, Editions la decouverte, Paris 1985.

17- DRUMMOND. L, cite par Philippe POUTIGNAT .
18- William A. DOUGLASS et Stanford M. LYMAN, L'ethnie: structure, processus et saillance, in cahiers Internationaux de sociologic, volume, LXI, 1976.
19- Clifford GEERTZ, savoir Iocal, savoir global, Editions PUF, 1986, Traduit de l'anglais par denise PAULME.
20- Mondher KILANI, Lignages et identité ethnique dans l'oasis de Gafsa, In IBLA, n°160, tome 50, 1987.
21- Guy NICOLAS, Fait « Ethnique » et usages du concept d'Ethnie », In Cahiers Internationaux de sociologic. Volume LIV 1973 .
22- T. KOOMMEN, Les relations entre races, ethnicite et classe, In Revue Internationale des sciences socilaes, n°139, Février 1994.
23- Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FENART, Theories de L'ethnicite, Editions PUF, Paris 1995.
24- Jean POIRIER, Ethnologie regionale, In Encyclopédie de la pleiade, Editions Gallimard, 1972.
25- Christian RINAUDO, L'ethnicité dans la cite, jeux et enjeux de la catégorization ethnique, Editions l'Harmattan, 1999.
26- Taylor A.C, Article << ethnic >>, in Dictionnaire de l'Anthropologie et ltethnologie, Publié sous la direction de P. BONTE et M. IZARD, Editions, PUF 1991.
27- Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui, In Racisme etmodernite, sous la direction de Michel WIEVIORKA, Editions la découverte, 1993.
28- Lucette VALENSI, La tour de Babel, groupes et relations ethniques au Moyen-orient et en Afrique du Nord, InAnnalesE.S.C, juillet-aout, 1986 n°4.
29- Lucette VALENSI, Presentation du numéro: les societesplurielles, In Annales E.S.C.1986,n°4.
30- MaxWEBER, Economieetsociete, Editions Plon, 1971 et Editions Pocket, 1995, Tome 2.
31- Michel WIEVIORKA, La sociologic sous tension, in cahiers Internationaux de sociologic, volume 101, 1996.
32- Michel WIEVIORKA, la democratic à l'épreuve, nationalisme, populisme, ethnicité, Editions la découverte, Paris, 1993.